دراسات الأدب المعاصر
السنة الرابعة، العدد١٤، صيف ١٣٩١ش
ص ٣١-٥٤

السّخرية عند الشاعر العراقى أحمد الصافى النجفى

حامد صدقى* - عبدالكريم البوغبيش**

الملخص

تمثل السخريه فنّا من الفنون الإنسانية التى تعبّر عن تطوّر المجتمعات البشرية عبر التاريخ. والسخرية هى نمط من أنماط الكوميديا والتى تنقسم إلى أنماط عدّه مثل: الهجاء أوالدراما الهجائية (Stair) التى تهاجم العادات والأخلاقيات والأفكار والموسّسات الاجتماعية بشكل يتّسم بخفة الدّم (الظرف) والسخرية أو التهكم(Sarcasm).

تحاول هذه المقالة دراسة السخرية عند الشاعر العراقى الكبير أحمد الصافى النجفى الذى يعدّ من روّاد الشعر الساخر العراقى عامة والنجفى خاصة، ولقد تحدثنا عن السّخرية ومدلولها والتقسيمات التى وردت من قِبل النقّاد الغربيين وبعد ذلک جئنا بنبذة عن حياة الشاعر ثمّ تطرقنا إلى سخرية الشاعر بشتّى أغراضها.

الكلمات الدليلية: السخرية، الشعر المعاصر، العراق، أحمد الصافى النجفى.

* جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران. (أستاذ)
** جامعة آزاد الإسلامية فرع علوم وتحقيقات، طهران، إيران. (طالب مرحلة الدكتوراه)
A_Albughobaish@gmail.com

تاريخ الوصول ١٣٩٠/٩/١٣ تاريخ القبول ١٣٩١/٤/١٢

المقدمة

تمثل السخريه فنّا من الفنون الإنسانية التى تعبّر عن تطوّر المجتمعات البشرية عبر التاريخ. والسخرية هى نمط من أنماط الكوميديا والتى تنقسم إلى أنماط عدّه مثل: الهجاء أوالدراما الهجائية (Stair) التى تهاجم العادات والأخلاقيات والأفكار والموسّسات الاجتماعية بشكل يتّسم بخفة الدّم (الظرف) والسخرية أو التهكم(Sarcasm).

وهناک أيضا الهزل (Farce) الذى يتّم فيه المزح (الهزء) بالحياة من خلال اختراع مواقف عبثية وشخصيات مبالغ فيها. وهناک كذلک المحاكاة الساخرة (burlesque) التى تتضمّن السّخرية من الأعمال (الفنّية) الأخرى من خلال الكاريكاتور والمحاكاة التهكمّية (Parody)، وهناک أيضاً الكوميديات السوداء أو القاتمة، وهى الأعمال الكوميدية ذات المذاق السيء التى يجد الجمهور صعوبة فى تقرير ما إذا كان عليهم أن يهاجموها، بشكل صاخب.

وكما نعلم يعدّ الشعر – بحّق – من أروع الألوان الأدبية التى أنتجتها قريحة الإنسان؛ لما ينطوى عليه من المجالات الفنّية الخصبة التى لاتزال تنبض بالحياة والحيوية.

وإنّما كان الشعر كذلک، لأنّه يستمدّ أفكاره ومضامينه من واقع البيئة التى يحيا فيها الأديب، معبّراً عن الآمال والآلام، من خلال أنصهاره فى بوتقة الواقع حيث يتلقّى الأديب وحيه من خلاله. وهذا مبنى على أساس من الصّلة القوية التى تربط بين الأديب بوجهٍ عام والحياة فى شتى مجالاتها، وهذا يعنى أن أدب كلّ أمّة صورة واضحة المعالم لها فى شتّى ظروفها وأحوالها.

ولهذا فليس بمستغرب أن يأتى شعراء العراق بصورة عامة وشعراء النجف بصورة خاصة فى العصر الحديث – بما يتحقق فيه من مبدأ المعاصرة – حاملين بين طياته كثيراً من القضايا الوطنية والسياسية والاجتماعية، والثّقافية، والمشكلات الشخصية السائدة، ثمّ يعكس ظلال الوعى القومى تجاهها.

ومن ذلک ندرک: أنّ كثيراً من الشّعراء كانوا ينظمون أشعارهم، وقد صنعوا أمام

أعيونهم قضايا بلادهم ومشاكل وطنهم، واتّخذوا من هذا الشعر وسيلة للإصلاح والتقويم وبثّ الوعىّ وإيقاظ الهمم الغافلة. ويعدّ شاعرنا أحمد الصافى النجفى من كبار شعراء العرا ق الذين اتّخذوا من السخرية فنّاً لبيان ما يخلج فى أذهانهم وإيصال فكرتهم إلى الناس دون أن يتعرضوا لضرر من قِبل السلطات الحاكمة. والحقّ، أنّ ظروف الحياة السياسية العراقية، بما وجد فيها من احتلال أجنبى بغيض، ثمّ من فرض للحماية على البلاد، ثمّ مشكلة الامتيازات الأجنبية، وما كان من قهر وإذلال للشعوب العربيّة عامّة وما تبع ذلک من ظهور المشاكل الاجتماعية، والقضايا الفكرية التى غصّت بها الحياة العراقية.

كلّ ذلک كان دافعاً قوياً إلى صبّ الشّعراء العراقيين بصورة عامة والنجفيين بصورة خاصة جام غضبهم وسخطهم على عدوّهم ومحتلّ أرضهم ومن يمدّ يد العون اليهم من خلال منظوماتهم الشّعرية السّاخنة والتى بدأت "السخرية" فيها فنّاً أدبياً متميزاً.

لقدحاولنا فى كتابة هذا المقال أن نأتى بدراسة مختصرة حول السّخرية، وكذلک دراسة مختصرة حول حياة الشاعر وبعد ذلک الدخول فى صلب المقال.

الإشتقاق اللّغوى لكلمة السخرية ومدلولها

يجدر بنا ما دمنا فى معرض الحديث عن السخرية فى الأدب أن نحدّد مدلول هذه الكلمة اللّغوى، كما ورد فى المعاجم والقواميس، ومعانى بعض الكلمات التى تدور فى فلكها كالتهكم والدّعابة والهزل.

أما السخرية فالفعل منها سخر، واللغة الفصحى سخر منه، وبها ورد القرآن، قال الله تعالى: (سخر الله منهم) وقال الفراء يقال سخرت منه ولا يقال سخرت به وأجاز الأخفش كلاهما وقال النووى الأفصح الأشهر سخر منه وإنما جاء سخر به لتضمنه معنى هزىء.وفى الكتاب العزيز: (وإذا رأوا آية يستسخرون). قال الرمانى: يدعو بعضهم بعضا إلى أن يسخر. وسخر واستسخر كعجب وتعجب واستعجب والاسم السخرية. قال تعالى: (إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون) أى إن تستجهلونا أى تحملونا على الجهل على سبيل الهزء فإنّا نستجهلكم كما تستجهلوننا،

وإنما فسر بالاستجهال هربا من إطلاق الاستهزاء عليه تعالى. (الزبيدى، لاتا: مادة "سخر")

أما التّهكم: فيقصد به قديماً وضع سؤال مع تصنع الجهل. والغرض من ذلک تخليص العقول من العلم الزائف وإعدادها لقبول الحق. ويقصد به حديثا تأييد رأى بما يعارضه بقصد السّخرية. (الجوهرى،۱۹۹۰م: مادة "هكم")

والدّعابة: المزاح وفى الحديث أنّه (صلّى اللّه عليه وآله) قال لجابر رضى الله عنه وقد تزوج: (أبكراً تزوجت أم ثيبا. فقال: بل ثيبا. قال: فهلا بكرا تداعبها وتداعبک) والدعابة اللعب. [۱] والهزل: نقيض الجد. هزل فى الأمر كضرب ومرح وفى التنزيل: (وما هو بالهزل). قال ثعلب أى ليس بهذيان. وفى التهذيب أى ما هو باللعب. وفلان يهزل فى كلامه إذا لم يكن جادا، نقول أجاد أنت أم هازل؟ والهزالة الفكاهة. (ابن منظور، ۱۹۹۷م: مادة "دعب")

وبعد هذا العرض الدقيق لمدلول تلک الكلمات وطبيعة الفوارق اللغوية الدقيقة بينها، نستطيع القول إنّ لإدراجها تحت مفهوم السّخرية أمر منوط بالاستعمال والقصد، فقد يسخر الرجل من نفسه وأصحابه ومجتمعه بمزج الجدّ بالهزل وبالتهكم الجارح أو الدّعابة اللطيفة المحبّبة. والأسطر القادمة نأتى بنبذة عن حياة الشاعر الصافى النجفى وندرس ما وجدنا من سخرية فى دواوينه الشّعرية.

نبذة عن حياة الشّاعر أحمد الصافى النجفى

ولد شاعرنا أحمد الصافى النجفى فى مدينة النجف الأشرف عام ۱۸۹۷م. (شرارة، لاتا: ۶) «لأب من أسرة حجازية الأصل وأمٍّ لبنانية من مدينة صور.»، «تنحدر أصوله من أسرة علمية دينية مرموقة يتصل نسبها بالإمام موسى الكاظم(ع) وكانت تعرف بآل السّيدعبد العزيز.» (برهومى، ۱۹۹۳م: ۱۵) وتلقّى دراسته فى مدارس النجف، ثم انتقل إلى إيران، أو هرب إلى إيران بعبارة أصحّ وذلک فى العشرين من عمره فى عام ۱۹۲۰م حيث أصدر الحاكم الإنجليزى أمراً بإلقاء القبض على الصافى لكونه من المحرضين على ثورة العشرين، فاضطر إلى مغادرة العراق إلى إيران. وحين وصل

الشاعر إلى طهران قرأ فى الصحف الإيرانية وأخذ يدرس اللغةالفارسية وآدابها أثناء مكوثه فى طهران، ويطلع على ما فى نتاج الشعراء الإيرانيين من كنوز وروائع، ولم يكد يمضى عام واحد فقط إلا وكان الصافى يجيد اللغة كتابة وقراءة وتحدّثاً، وتمكّن أن ينشر ويترجم فى أشهرالمجلات والصحف الإيرانية من أمثال صحيفة "كوشش" و"شفق سرخ" و"ستاره إيران" و"إقدام"، ومجلة "تعليم وتربيت"، ومجلة "أرمغان" لسان حال النادى الأدبى فى طهران وسواها من الصحف والمجلات الشهيرة. (المصدر السّابق: ٢٠-٢٢بتصرف)

فلفت الأنظار إليه وانتخب عضواً فى النادى الأدبى وبعدها عيّن عضواً فى لجنة التأليف والترجمة، ثم كلفته وزارة المعارف فى إيران ترجمة كتاب فى (علم النفس) لمؤلفيه على الجارم وأحمد أمين من العربية إلى الفارسية ليدرّس فى دار المعلمين بطهران. فترجمه بدقة إلى الفارسية، ثم ترجم رباعيات الخيام من الفارسية إلى العربية إذ تعتبر أفضل ترجمة لأنّه نقلها عن الأصل الفارسى وطبعت للمرة الأولى فى طهران، حيث قال الصافى بعد فراغه من التعريب: ... ولما أكملتُ التعريب عرضته على أدباء الفرس فقابلوه بالأصل وأكبروه غاية الإكبار.

ثم عاد إلى العراق بطلب من الحكومة العراقية وأصدقائه ليخدم بلده فعيّن قاضياً فى مدينة الناصرية لثلاث سنوات.(عمران، ٢٠٠٩م: شبكة النبأ المعلوماتية) وفى عام ١٩٣٠م، ذهب إلى سورية للاستشفاء على إثر وعكة صحية آلمت به، وكان يتنقل بين دمشق وبيروت متابعاً رسالته الأدبية. وعندما اندلعت الحرب بين الحلفاء والمحور عام ١٩٤١م أدخل الصافى النجفى السّجن بأمر السّلطات الإنكليزية إثر الأشعار الوطنية التى راح ينظمها ويهاجم فيها الاستعمار والمستعمرين حتى ألهب حماس العراقيين، ومكث فى التوقيف ثلاثة وأربعين يوما تحت إدارة الأمن العام الفرنسى ثم أفرج عنه ونظم فى السّجن ديوانه الشّهير "حصاد السّجن"، الذى يعد ظاهرة فريدة من نوعها فى الأدب الحديث، وأهداه لكفاح الشّعب العراقى ضد الانجليز وعملائهم قائلاً: (الصافى النجفى، ١٩٨٣م: ٦٢)

لَئِن أسْجَنْ فَمَا الأقفَاصُ إلا لِلَيـثِ الغَـابِ أو لِلعَنـدَلِيبِ
ألا يَا بُلبُلاً سَـجَنُوکَ ظُلمَـاً فَنُحْتَ لفُرقَةِ الغُصنِ الرّطِيبِ

وقد حرص الشّاعر على إبقاء حصيلة أشعاره فى السّجن بعيدة عن النشر لأسباب لم يفصح عنها فى حينه ومن المرجّح أنّها كانت سياسية.

أمضى الصافى ٣٦ عاماً متنقلاً بين إيران وسورية ولبنان وكانت المقاهى ضالته فى دمشق فكان يرتاد مقاهى "الهافانا" و"الكمال" و"الروضة" لأنّها كانت ملتقى الشّعراء والأدباء والصحفيين. كان الصافى قليل الـدّخل فاتّخـذ غرفـة قديمـة فـى "مدرسـة الخياطين" وكان من أصدقائه بدمشق الدكتور عبد السّلام العجيلى وفخرى البـارودى وبدوى الجبل ومحمد الحريرى وأحمد الجندى وعمر أبوريشة وسعيد الجزائرى. ومن أصدقائه فى لبنان الشّاعر القروى وميخائيل نعيمة ومارون عبود وغيرهم.

حياة الغربة والتشرد والسجون

عاش الصافى النجفى سنين عجافاً، حياة ممزقة بين السقم واليتم والألم والحرمان؛ مات أبوه ولم يبلغ الثانية عشرة، وتوفيت أمّه ولم يكمل السـابعة عشـرة مـن عمـره، فداهمته الأحزان والعلل، حتى قال فى ذلک: (برهومى، ١٩٩٣م: ٤١)

أسـيرُ بِجسـمٍ مُشْـبِهٍ جسـمَ مَيـتٍ كـأنّى إذا أمشـى بـهِ حـامِلاً نَعْشِـى

وعاش غريباً داخل نفسه وغريباً بين أهله وعشيرته "بل الغريب من هو فى غربته غريب" كما يقول أبوحيان التوحيدى. فكتب الصـافى، بحـسّ مرهـف وبـدمع ذارف، أجمل قصائد الغربة، والمعاناة من السجن التى وصفها بالغربة داخل الغربة لأنه سـجن خارج وطنه: (المصدرالسابق: ٣٦)

فكيـف بسـجنِ إنسـانٍ غريـبٍ؟! أرى فـى غربـةِ الإنسـانِ سِـجناً

كما عبّر عن ذلک فى قصيدة "شاعر وأزهار" إذ يقول ونحن نلمس فى قوله عذوبة لغتـه وفرط حساسيته الممتزجة بالألم والمعاناة.

أقبّـلُ الزهـرَ فـى الأغصـان مزدهِيـاً ومـا تُسـوغُ كفِـى قطـفَ أزهـارِ

جَرَّبتُ مِن غُربَتِى مَا لَستُ أحمِلُهُ فَمَا أكلفُ غَيرِى غُربةَ الدارِ
تَموتُ للغُربةِ الأزهَارُ إن قُطِفَتْ فَكيفَ يَحيا غَريبٌ رَهنُ أسفَارِ؟
لَو كَانَ يَحمِلُ حسَ الزَّهرِ مُغتَرِبٌ لَمَاتَ كَالزَّهرِ مِن هم وَأكدَارِ
يَبدُو لِى الزَّهرُ تَزدَانُ الصُّدورُ بِهِ مِثلَ الشَّهيدِ بِلا جُرمٍ وَأوزَارِ

طاف الصافى مدناً ودولاً عديدة منفياً مطارداً من أنظمة متتابعة،تسلطت على حكم البلاد ورفعت الشعارات الكاذبة لتخدير عقول أبناء الشعب العراقى وساهمت فى تثبيت أقدام المحتلين والدخلاء،أكثر من خمسين عاماً قضاها بعيدا عن العراق تطلب رأسه جميع الحكومات، وتهاجم قصائده كل الحكومات.

وهكذا فقد كان الصافى شريداً من كيد حكام الجور الضالعين فى ركاب الاستعمار لرفضه وجود المحتلين الأجانب لبلاده وكان الصافى يكنّ كُرهاً شديداً للإنجليز بسبب جرائمهم فى العراق والدّول العربية حيث يقول: (الصافى النجفى، ١٩٨٣م: ١٢٦)

أحارِبُ جنسَ الإنجليزِ لأنّنى وقفتُ عَلَى نَصرِ الحَقيقةِ مِخْدمِى
أحَارِبُهُم حَربِى لِكُلِّ رَذيلةٍ إلى كلِّ شيطَانٍ إلى كلِّ أرقمِ
أخافُ إذَا مَاتُوا، تَمُوتُ أبالسٌ فَأبقَى بِلا لَعنِى لَهُم، نِصفَ مُسلمِ!
تُحاربُهم رُوحِى وَكفِّى وَمَنطِقِى وَإن هُمْ نَوَوا قَتلِى يحارِبْهُم دَمِى!

ويبدو واضحاً من تلك الأبيات مدى الكره والبغض اللذين كان الشاعر يضمرهما للإنجليز؛ فهو يعتبرهم رذيلة ورجساً على الأرض، بل هم الشيطان نفسه، وهم يحملون صفة الغدر كما يحملها الثعبان فى أسوء أنواعه.

لقد كان الصافى مطارداً من قِبلِ الإنجليز، فحط الرحال، بعد طول غياب، فى أرض لبنان، ليناصب الفرنسيين العداء الذين قرروا إبعاد صوته الذى كان يتسلّل إليهم من بين الأصوات كفورة دمٍ ولمعة نجمٍ فى سماء لاتكدرها الغيوم، فكان لهم ما أرادوا وله ما أراد: (المصدر السّابق: ٣٤)

سُجنت وقد مرتْ ثلاثون حِجةً من العمرِ فيها للسِّجُونِ تَشَوّقْتُ

سَعى "دعبلُ" للسجنِ طولَ حياتِه   فخابَ، وفى المَسعَى لِسِجنِى تَوَقّفْتُ

مرّت بالصافى السّنون، وحياته سجلّ بين المرض والمنون، بيد أنّ النضال كان يهبه أسباب الحياة، ويُلبس خصومه عوامل الخواء، وكانت لعناته منصبة على بريطانيا أم الفساد، والسبب الرئيس أنّها وراء كل المشاكل التى يعانى منها العراق: (المصدرالسابق: ۴۷)

خسئتْ إنكلترا واللهُ   أعمى مُقلتيْها
قبرُها فى كلّ أرض   حَفرَته بِيَديها
سَجَنتنِى دونَ ذَنبٍ   غَيرِ لَعنِى أبويْها
أمّنت حَربِى، وَسِجنِى   يُعلنُ الحربَ عليها!

ترى ماذا كان شاعرنا الصافى ليقول لو كانت حياته امتدت إلى هذا الزمن، الزمن الذى أصبحت فيه القوى الاستعمارية الكبرى صديقة للمسلمين فى ليلة وضحاها! ومن العجب أن (بعض المسلمين) الذين كانوا يدّعون حتى فترة قريبة أن تلك القوى هى عدوة الشعوب، والعدو الأول واللّدود للإسلام والمسلمين نراهم اليوم وقد تخلوا ببساطة عن شعاراتهم السابقة ليرتموا فى أحضان تلك القوى حتى النخاع طالبين منها حل مشاكلهم، وتقديم معطياتهم وإنجازاتهم فى مجال الحريّة والديمقراطية؟!

ترك الصافى النجفى عدّة مجموعات شعرية منها: "ديوان الأمواج" ۱۹۳۲م؛ "أشعّة ملوّنة" ۱۹۳۸؛ "الأغوار" ۱۹۴۴؛ "التيار" ۱۹۴۶؛ "الحان اللهيب" ۱۹۴۸؛ "الهواجس" ۱۹۴۹؛ "شرر" ۱۹۵۲؛ و"المجموعة الكاملة لأشعار أحمد الصافى النجفى" ۱۹۷۸م. (الشّعار، ۱۹۹۹م، ج۲: ۱۴۸)

السّخرية فى شعر أحمد الصّافى النجفى

تقول الدكتورة سلمى الجيوسى «ظهرت بادرة السّخرية فى الشّعر العراقى عند الزهاوى وكانت روح الزهاوى هذه والميل إلى البساطة ميزتين تابعهما بنجاح كبير أحمد الصافى النجفى، الشّاعر الجوال الذى قضى أيامه الموحشة المدقعة فقراً بين سوريا ولبنان.» (الجيوسى، ۲۰۰۱م: ۲۵۸) والكويت وإيران وحفلت دواوين الصّافى

بكمّية وافرة من أبيات الهجاء وتراوحت هجائياته بين القدح المرّ والذم الخفيف والعابة السّاخرة، بيد أن الصافي في جميع أنواع هجائه لم يتعرض لمهجّوه بلفظٍ يمسّ كرامته أو كلمة تجرح شعوره.

وأكثر أبيات الهجاء التي نظمها الشّاعر قالها في مدّعي الشّعر عموما أو في ناقدي شعره، وحاسدي تفوّقه ونبوغه على وجه الخصوص.

غير أنّ ما يهمّنا في هذا البحث هو أحد أنواع هجائه وهو أسلوب السّخرية وتقول الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسي في معرض حديثها عن ميزات شعره: «يتميز شعر الصافي ببساطة شديدة في الأسلوب وبلغة شعرّية كثيراً ما تقترب من الكلام السّائر وهو إذا يتأمّل الحياة يكشف عن وعي مباشر ليس فقط بالمشهد الوطني والاجتماعي حوله، وهو ما اقتصر عليه كثير من معاصريه من الشّعراء بل يعكس أيضاً وعياً بالحياة من حوله، وهو إنجاز أكثر صعوبة فقد استطاع أن يعالج المواضيع العادية في الحياة اليومية من دون أن يتعثّر أو يعكس ذلك السّخف الذي نجده عند العقاد في "عابر سبيل" والواقع أن الفرق الجوهري بين الشّاعرين هو أنّ الصافي معنى عناية مخلصة بالحياة والوضعية الإنسانية وقادر على أن يصور المواقف المثيرة للأسى أو الهزء في سهولة ووضوح؛ بينما نجد العقاد إما يخترع موقفاً زائفاً أو يضخم موقفاً بسيطاً، فيقحم عليه أحياناً كثيرة نبرة مأساوية.» (المصدر السابق: ٢٥٩-٢٦٠) ولاتقوم صناعة الصافي في الشّعر على المعاني، ممّا انعكس ذلك حتى على مظهره الخارجي فأنّه لم يكن يعتني بهندامه وثيابه قدر اعتزازه برجاحة عقله: (الصافي النجفي، ١٩٦١م: ٧)

حَسِبُوا اليومَ أنّهُم أبصَرُونى أبْصَروا مَظْهَرِى ولَم يبصِرُونِى

وإذ يعرض الصّافي لأنواع شتّى من التجارب يعطى انطباعا عن رجل بالغ الانشغال بصراع مكشوف ضد المفاسد، والحقارة، والخسّة، والمعايب، والخمول، والنفاق، والجهل، والجشع، والفجاجة، والفوضى، والسّياسة الغوغائية المتحفظة، ويحدّد الصورة غالبا بتفصيلات دقيقة، وقد يدخل في جدل مع الأشياء التي يكتب عنها ويسخر منها وقد يؤنّبها بشدّة أحياناً، ولكنّه لايقف موقف الواعظ إطلاقا. كما شاهدنا في شعر

الرصافی عاطفة عمیقة لاتطفو إلی السطح، فتختلف فی هذا عن تلک الفورة العاطفیة الباذخة والرّنین المتجاوب الأصداء فی شعره.

ولکن الصافی یجتمع مع الرّصافی أنّه رجل شدید الأنفة، وهی صفة عرف بها أکثر من غیره وقد أضفت قیمة علی شخصیة الشّاعر وهذا ما یفسّر تحمّله للفقر والوحدة وعدم تنازله بأی شکلٍ من الأشکال للسلطات السّیاسیة وللجمهور.

وکما رأینا وسنری لاحقا فی حدیثنا عن السّخریة فی الشّعر العراقی، أنّ الشّعر الذی اعتبرناه ساخراً، یحمل سخریة مرّة دامیة تهدف الی إیقاف الشّعور الوطنی، وتحریضة علی الثورة ضدّ الأجنبی والمستعمر، إنّه أدب یتسم بالجد والقوة والوطنیة.

ویقول الشّاعر والکاتب السّوری عبدالغنی العطری فی کتابه القیم "أدبنا الضاحک" وهو من أکبر رواد السّخریة من العصر الحدیث؛ «علی أن الأدب الضاحک إن کان قد أعوز أدباء العراق وشعراءه المقیمین، فإنّه لم یعوز قطّ شاعراً عراقیاً فذّا من المهاجرین النّازحین، ونعنی به الأستاذ أحمد الصافی النّجفی.» (العطری، ۱۹۷۰م: ۳۱۳)

والدّارس للشعر العراقی یجد أن معظم الشّعراء السّاخرین العراقیین هم من السّیاسیین المبعدین الذین یعیشون فی المنفی بسبب مواقفهم السّیاسة المناهضة للسلطة الحاکمة.

ومن جهة أخری إنَّ هذه القسوة التی نجدها فی الشّعر العراقی حتّی السّاخر منه ربَّما یکون مردّها إلی العوامل التاریخیة، فقد شهد هذا البلد المصائب والویلات من قبل الحکومات الظالمة والغزاة المحتلّین الطامعین فی خیراته وکان لموقعه الجغرافی الممتاز أیضاً أثره فی ذلک ممّا جعله محطّ الأطماع من قبل الإمبراطوریات وقوی أخری فی العصور کافة، وقد تعرّض هذا الشّعب للقتل والسلب والأسر والدّمار، وهذا المسلسل التراجیدی مازال مستمرا إلی یومنا هذا، وباعتبار أنّ الأدب والفن هما مرآة الشّعوب فقد حملا هذه المعاناة والمأساة، ومن یقرأ الأدب العراقی ویستمع إلی الألحان والأغانی العراقیة یلمس نبرة الحزن هذه.

ونری أن العامل الآخر الذی أدی إلی هذه القسوة حتّی فی مجال السّخریة هو

اللهجة العراقية، فاللهجة العراقية خشنة ذات إيقاع صاخب، عكس اللهجات العربية الأخرى التى تجد فيها مرونة ونعومة أكثر لذا تجد أنّ العراقى قليل الكلام، كثير السّكوت، يحاول أن ينتقى المفردات عندما يتحدّث إليک.

أمّا الشّاعر أحمد الصّافى فقد شذّ عن هذه القاعدة، أى أنّ شعره السّاخر – كما أسلفنا – يتّسم بروح الدعابة وهو «محبّ بطبعه للنكتة والنادرة، تجلس إليه، فيضحک من أعماقه ان فاكهته، ويغيب فى قهقهة عالية أن رويت له طرفة أو نادرة، كما يسبقک إلى الضحک إن أراد أن يروى أفكوهة أو أملوحة ... إنه مرح بطبعه يجد النكتة، ولاسيما فى شعره، وكثيراً ما يظمّنها قصائده ومقطوعاته، أو يختم بها تلک القصائد والمقطوعات.» (المصدرالسابق: ٣١٣)

وها هو ذا فى قصيدة "مستنقع الحياة" يسخر حتّى من الحياة نفسها: (الصافى النجفى، ١٩٦١م: ١٤٢)

سَخِرتُ وسَوفَ أسخَرُ مِن حَياة ... بِنا سَخِرَتْ لَأغبَنَهَا كغَبنِى

سَأضحَک مِن سَخافتِها زَمَاناً ... كمَا ضَحكتْ عَلَى عَقلِى وذَقَنِى

سَخِرتُ بِسَخفِهَا زَمَناً، ولَكن ... سَرى لِى دَاؤُهَا فَسَخِرَت مِنى

ويبدو أنّ الحياة جعلته يسخر حتّى من نفسه أيضاً.

ولنستمع إليه وهو يصف نعله البالى وحالته المادية المتدهورة فى قصيدة "صباغ الأحذية" عندما أتاه مساح الأحذية، وكان لا يملک الشّاعر إلا دراهم قليلة أعدّها لقوته، فآثر أن لايردّه خاثبا فأعطاه قوت عشاءه: (الصافى النجفى، ١٩٤٦م: ٢٠)

جاءَ يومَاً إلىَّ صبَّاغُ نَعل ... وبِنَعلِى صِبغٌ مِن الأيامِ

مَرَّ دَهرٌ عَليهِ لَم يرَ صِبغاً ... غَيرَ صِبغِ الغبَارِ والأقدَامِ

وكسَتهُ أشعةُ الشّمسِ لونَاً ... صَارَ منهُ كقِطعةٍ مِن رغامِ

جَاءَ نَحوِى يرومُ صِبغَ حِذَائِى ... أنا للصّبّاغِ أعدَى الأنامِ

أنَـا خَصـمُ الألـوانِ تُخفِـى عُيوبَـاً | إنَّ عنـدِى الالـوانَ كالأوهَـامِ
قُلـتُ فأصـبغْ لِـى الحِـذاءَ بِصـبغٍ | فيـهِ أغـدُومِثلَ الـذواتِ العِظـامِ
فغَـدا يصـبَغُ الحـذاءَ بِحِـذقٍ | مُبـدِياً فيـهِ كـلَّ فـنٍّ تَمَـامِ
ثـمَّ بَادَرتُـهُ بِمَـا ضَـمَّ جَيبِـى | مِـن نُقـودٍ أعـدَدتُها لِطعـامِى
فَمَضَـى هَانِئَـاً ورُحْـت كـأنّى | ثمِـلٌ بِالسـخاءِ لا بالمُـدامِ!

وفى قصيدته "خير وشر" يصف يوماً أراد فيه أن يفرّ من حرّ دمشق إلى ربوع "دُمَّر" فوجد سيارة قديمة، أشفق على صاحبها وكان النّاس ينظرون إليه شزراً، فإذا بالشّاعر يشفق على السّائق ويؤثر سيارته البالية على غيرها من السّيارات الجديدة الفارهة وما يكاد يأخذ مكانة فيها، حتّى يتدفق عليها الركاب، فيحشرهم السّائق بعضهم فوق بعض وهنا سرّ صاحبها وأخذ مكانه فيها. (المصدرالسابق: ۳۲)

ويـوم لِـى بجُلـقَ رُمـتُ فيـهِ | مِـن الحَـرِّ المُهَـاجِمِ أنْ أفِـرّا
فَقُلـتُ: لِـدُمَّر أمضِـى لِـالقى | بظِـلِّ الخلـدِ ثمَّـةً لـى مَقـرّا
فَسِـرتُ إلـى "اوتومبيـل" كبيـرٍ | وكـانَ حَشـاهُ، مِثـلَ الكفِّ،صِـفرَا
أويـتُ لـهُ، ولا سـترٌ عَليـهِ | يقيـک الشّـمسَ إن سَـامتْک حُـرّا
فَـراحَ بِهِـم يسـيرُ كفُلـک نُـوحٍ | وَقَـد تَخِـذ الفَـلا، لِلمَخْـرِ، بحـرَا
فَكـدتُ أمـوتُ فيـهِ مِـن ازدحـامٍ | وأسـكنُ فيـهِ، قَبـلَ القَبـرِ قبـرَا
ولَكـنْ وَجـهُ سَـائِقّهِ بَـدَا لِـى | يمُـوجُ بَشاشـةً ويمـيضُ بُشـرَا
فـالقى نظـرةً مُلِئَـتْ حَنانَـاً | الـىَّ وأكثـرَ النّظـراتِ شـكرَا
وقَـال: لَنَـا قُـدومُک كـانَ خَيـراً | فَقُلـتُ لَـهُ: أجَـل! وعَلَـىَّ شَـرَّا

ويبدو أن إشفاق الشّاعر على الآخرين يضعه فى مواقف حرجة ولكن روح الشّاعر اللطيفة تخفّف من وطأ هذا المأزق، ورأينا النهاية المضحكة التى اعتاد الشّاعر أن يبرزها فى بعض قصائده وفى ديوانه "اللفحات" فى قصيدة بعنوان "رثاء لحية"

یرثی لحیتة التی طالت بسبب فقره. وها هی القصیدة: (الصافی النجفی، لاتا: ۶۹-۷۱)

ذَهَبْتُ إلی الحَلّاقِ یوماً بلحیةٍ | کلحیةِ شَیخٍ أو کلحیةِ خوری
ولَم تَک قَد طالت لِنُسک ولا ریاً | وإن خَالهَا الحُسَّادُ لِحیةَ زُورِ
ولَکنّما فَقدُ الفُلوسِ أطالهَا | فَیجدُرُ أن تدعَی بذقنِ فَقیرِ
یقیسُ الوَری مَالی بِمقیاسِ طُولِهَا | ولکن لَها سَیرٌ بِعَکسِ مَسیری
فَإن قصُرَتْ یوماً فَذَاک لَدی الوَرَی | دَلیلٌ عَلَی مَالٍ لَدَیَّ وَفیرِ
وإن بَلغَتْ فی الطّول شِبراً وإصبعَاً | تدُلّ عَلَی إفلاسِ بَعضِ شُهورِ
ولمّا رَأیتُ الوَجهَ زَادَ دمَامةً | بهَا وأغتَدَی منها الوَرَی بِنُفورِ
مَضیتُ إلی الحَلّاقِ أطلُبُ قصَّهَا | وتَخفیفَ شَعرٍ مُثقِلٍ لِشُعُوری
وقُلتُ لَهُ خُذ نِصفَ ذَقنِی لَتغتدِی | کذَقنِ رئیسٍ أو کذقنِ أمیرِ
فَراحَ یزیدُ القَصّ فِیهَا مُدقِّقاً | بقَرضٍ وحَفّ أو بِبَعضِ أمُورِ
وکنتُ أُعَانِی قلعَ شَعرٍ بقَصِّهَا | وأُمنَی بجُرحٍ فی الخُدودِ خَطِیرُ
وکنتُ لَهُ أشکو وأزفُرُ صَائِحَاً | فَلَم تَنفَعِ الشّکوَی وطُولُ زَفیری
ولَمّا أنتهَی مِن قَصِّهَا کنتُ مَیتاً | وقَدحَانَ بَعدَ القَصِّ یومُ نُشُوری
فجَاءَ بِمرآة لِأبصِرَ لِحیتِی | فَیا لیتَ إنّی کنتُ غَیرَ بَصیرِ
بَدَا لِی وَجهی حَاکیاً وَجهَ أمرَدٍ | صَغیرٍ وتَعلُوهُ غضُونُ کبیرِ
فَثُرتُ علَی الحَلّاقِ بِاللَّومِ غَاضِبَاً | فَقَال أعفُ عَن ذَنبٍ بَدَا لِقُصُوری
فَقُلتُ لِنَفسِی إنَّ هَذَا جَزاءُ مَن | یسلمُ ذقنَاً فی أکفِّ ضَریرِ
وأخرجتُ من کیسی له بعض أفلسٍ | فقال أ بَعدَ الذَّقنِ أخذُ أجورِ
فَبعتُ لَهُ ذَقنِی بِأبخَسَ قِیمةٍ | وَعدتُ بطَرفٍ فی الأنامِ کسیرِ

سوف نری الکثیر من هذه المفاجآت السّاخرة فی آخر قصائده، فالمفاجأة وتوقع

عکس المنتظر من أسباب الضحک الذی تحدّثنا عنه سابقاً. مثال آخر فی دیوانه "التّیار" ومن قصیدته السّاخرة "صید جدید"، فی هذه القصیدة یروی لنا الصافی أنّه مرّ ذات صباح بتاجر قد نضّد بضاعته ونسّقها، ولبث ینتظر صیداً سمیناً. فلمّا رأی الشّاعر من بعدُ، بثیابه العربیة، ظنّه أمیراً من أمراء البدو وأصحاب الثروات «ینفق المال فی المدینة جوداً.» ویقول: (الصّافی النجفی، ۱۹۴۶م: ۲۳)

جُزتُ صُبحَاً بِقربِ حَانُوتِ شَخص وَالبِضَاعَاتُ نُضّدَت تنضِیداً
نَاصِبٌ للشبَّاک یحسبُ جهلاً کلّ شَخص یمُرّ، صَیداً جَدیدَا
فرَآنِی کأنّنِی بدوّیٌ قد حَملتُ العَنَا وجُزتُ البَیدَا
وأتیتُ الشّآمَ أشرِی لِبَیتِی ولِإهلِی حَوَائِجاً وبرودَا
وبِجَیبِی مِن الدَّنانیر کنزٌ مُسْتَمدٌ مِن ثروة لَن تبیدَا
فَرَأی صُبحَهُ بِوَجهِی عیداً ورَأی مَطلعِی عَلیهِ سَعِیدَا
ظنَّ أنِّی أمیرُ بَدوغنیّ ینفُقُ المَال فی المَدِینَة جُودَا
قَال هَذَا رِزقٌ أتانِی صَبَاحَاً فغدَا یشکرُ الالهَ الحَمِیدَا
أمَلاً أن تَحِلَّ عنهُ بمَالی أزمَةٌ یشتکی بِهَا التَنکیدَا
رُمتُ عَطفَاً عَلیهِ أن أبطِئَ الخَطو لَأبقِیهُ بِالخَیالِ سَعیدَا
غَیر أنّی خَشیتُ فی البُطءِ مِن أن یضرُمَ الحِرصُ فی حَشاهُ وقودَا
مَا رَآنِی بِالخَطو أسرِعُ حَتّی طَارَ بشراً ومَدَّ نَحوی جِیدَا
ورَنَا لِی بِالطّرفِ یحسُبُ جَهلاً کلّ مَا ظَنّ فیّ أمرَاً أکیدَا
ثمَّ القَی شُبَّاک بشرٍ ولُطفٍ فَوقَ وَجهِی یرجُو بِها أن یصیدَا

وهکذا یستدرجنا الأستاذ الصافی النجفی إلی حیث المفاجأة فی البیت الأخیر:

هَبَّ لَمَّا مَررتُ بِالقُربِ منهُ قَائِلاً: مَاتریدُ؟ قُلتُ نُقودَا!!

وفی دیوانه اللفحات فی قصیدة "ضرس العقل" یتحوّل ألم ضرس العقل إلی

موضوع ساخر: (الصافى النجفى، ديوان اللفحات: ٥٣)

إنَّ ضِـــــرسَ العَقـــــلِ بِـــــالآ لَـــــامِ قَـــــد أذهَـــــبَ عَقلِـــــى
لَـــيسَ هَـــذَا ضِـــرسَ عَقـــلٍ إنَّ هَـــذَا ضِـــرسُ جَهـــلِ
إن يكـــن هَـــذا هُـــوَ العَقـــ ـــلُ فَيـــا جَهلِـــى دُمْ لِـــى
فهَـــل العَقـــلُ لِكـــلِّ الــــ ــــخلق بِـــالآلامِ يملِـــى
لـــم أجِـــدْ مِـــن عَاقـــلٍ مِـــن ضِرسِـــهِ يصـــرَخُ مِثلِـــى
أ أنــــا العَاقـــلُ وَحـــدِى أ ولا عَاقـــلَ قَبلِـــى
الــــوَرَى بِالعَقـــلِ يحيـــ ـــونَ وفـــى عَقلِـــى قَتلِـــى
أنـــا مَـــا لِـــى مِـــن صِـــفاتِ الــــ ــــعقلِ إلا ضِـــرسُ عقـــلِ

نعم يبدو أن تسمية "ضرس العقل" لم تعجب الشّاعر، مثال آخر فى نفس الـديوان من قصيدته السّاخرة "مكتبتى"، يقارن الشّاعر كتبه المبعثرة فـى أرجـاء بيتـه بكتـب المترفين الذين يقتنونها لا لشىء سوى للوجاهة والزينة وما أكثر هؤلاء فى أيامنا هذه: (المصدر السابق: ٩٥)

مُبَعثَـــرةٌ جَميـــعُ الكتـــبِ عِنـــدِى قَـــد انتشَـــرَتْ كعَـــائِلَتِى بِـــدَارِى
تَعـــيشُ بغُرفتِـــى مُتـــنقِلاتٍ فَليسَـــتْ تَســـتَقِرّ علـــى قـــرارِ
وكتْـــبُ المُتـــرفينَ مُجمَّـــدَاتٌ تَعـــيشُ غَريبـــة عَـــيشَ الإســـارِ
مُحرَّمَـــةٌ علَـــى أنظـــارِ قَـــارِ مُهَيـــأةٌ لجَـــاهٍ وافتِخَـــارِ
مُثبَّتَـــةٌ كجُـــزءٍ مِـــن جِـــدارِ مُنسَّـــقةٌ كأحجـــارِ الجِـــدارِ
غَـــدَت مَـــؤودةً فـــى مَكتَبَـــاتٍ فَقَـــد بُلِيـــتْ مِـــن المَـــوتى بجَـــارِ

ويروى الصّافى قصّته مع "أبى شاكر"، صاحب الفنـدق الصـغير الـذى نـزل فيـه، فرحب به، وزعم له أنّه نصير للأدباء والشّعراء، ولكنّه ما لبث أن سطا على كيس نقوده، الذى حشد فيه أوراقه وما تناثر من شعره، بينما دراهمه لاتبلغ العشـرة! إنّهـا قصـيدة

ساخرة ضاحكة. صاغها بكلمات بسيطة تتدفق حـلاوة وتفـيض بالدعابـة: (الصـافی النجفی، ۱۹۴۶م: ۴۱-۴۲)

نَزَلْـتُ فِـی نَـزْلِ أبـی شَـاکرٍ — مِـن حَظِّـی المُنـتَکسِ العَـاثِرِ
فکـان یلقَـانِی فـی بَسـمَةٍ — لَـم تَـک الا بَسـمَةَ السّـاخرِ
رَاحَ یبـاهِی أنّـهُ نَاصِـرٌ — لِزُمـرةٍ لَـم تَلـقَ مِـن ناصِـرِ
وأنّـهُ لِلأدَبَـا مُخلِـصٌ — مِـن نَـاظِمٍ فـیهِم ومِـن نَـاثِرِ
یـا لیـتَهُم ظلّـوا بِـلا نَاصـرٍ — لِیسـلمُوا مِـن نَاصـرٍ مَـاکرِ
إذا رَآنـی هَـبّ لِـی مُسـرِعَاً — یطلُـبُ منّـی إمـرةَ الآمـرِ
حَتّـی إذا إطمأنَنْـتُ مِـن حبّـهِ — مُنخَـدِعَاً فـی لُطفِـهِ الظـاهری
والشّـاعِرُ الصَّـافی یخـال الـوَرَی — تَحکیـهُ فـی البَـاطِنِ وَالظـاهِرِ
وأنّهُـم أشـرافُ نُفـسٍ غـدَتْ — قُلـوبُهُم کقلبِـهِ الطـاهِرِ
وکـانَ لِـی مِحفظتـا ثـروَةٍ — حِفظُهُمـا یشـغلُ لِـی خَـاطِری
قَـد حَوتَـا وَسـطَهُمَا کـلَّ مَـا — أملِـک فـی الأوّلِ والآخـرِ
دَراهـمٌ لَـو عَـدّهَا حاسـبٌ — مَـا بَلغَـتْ للـدّرهمِ العاشـرِ
وبِضـعُ أوراقٍ بطّیاتهـا — حَـوَتْ شَـظایا قلبـی الثـائِرِ
عَجِبـتُ مِـن جَیبِـی لَـم یحتَـرِقْ — بنَارهَـا والشّـررِ الطّـائِرِ
أعَـزٌّ مِـن رُوحـی فَرُوحِـی بهـا — قَـد اُفرِغَـتْ مِـن فِکـری القَاصِـرِ
تُبصِـرُ مِـن رُوحِـی شَـظایاً بِهـا — أو شَـرَرَاً مِـن طَرفِـی السّـاهرِ
فَجَـائَنِی اللِّـصّ وأودَی بِمَـا — جَمعتـه مِـن مـالیَ الحَاضـرِ
وَلَـم یمُـدّ اللّـصّ کفـاً إلـی — شِـعرِی أو دُرٌّ بِـهِ زَاخـرِ

وهنا تبلغ دعابته أوجها، حین یختم القصیدة بهذین البیتین:

خفّفَ لي اللّصّ أبوشَاكرٍ حِملي فَشُكراً لِأبي شَاكرِ
وَالحَمدُ لله عَلى نَكبَتِي بِسَارِقٍ لَم يكُ بالشّاعِرِ!

لقد سرق أبوشاكر دراهم الصافي، وأهمل أشعاره، استهانة بها ... ولكن الشّاعر حمد الله على أن السّارق لم يكن شاعراً، ولو كان كذلك لأدرك أن ثروة الشّاعر في شعره لا في ماله!!

وفي قصيدة "أنا والبعوض" يتضايق الشّاعر من البعوض: (المصدر نفسه: ١٠٧)

عَلامَ خَلَقتَ يا ربِّي بعُوضاً يعذّبُنَا بأوقاتِ المَسَاءِ
نُرجِّي النّومَ في الفَيْ رَجاءٍ ونَدعُو النّومَ في الفَيْ دُعاءِ
ولَكن حِينَ يدنُو النومُ منا يشّرِدُهُ البَعوضُ بِلا حياءِ
فَيقرُصُ جِسمَنَا لا قَرصَ مَزحٍ ويسلُبُنَا الكرَى لا عَن عِدَاءِ
نُغطي عنهُ أرجُلَنَا اتّقاءً فَيبصِرُهُنَّ مِن تَحتِ الغِطَاءِ
عَجيبٌ أنتَ يا ربِّي حكيمٌ وفي كفّيك مِيزانُ القَضَاءِ
أتُبقِي النّورَ في عَينَي بَعُوضٍ وتَحرُمُ منهُ عَينَ أبي العَلاءِ؟

ومن ألطف شعره السّاخر قصيدة عنوانها "التخت العليل" فقد وصف الشّاعر غرفته التي يأوي إليها، والبق الذي يلسعه أحياناً والبعوض الذي يطيب له أن يشرب من دمه ... ووصف كذلك سريراً نام عليه ذات يوم، قائلاً: (المصدرالسابق: ٣٠-٣١)

رُبَّ تَختٍ سَمَّوهُ تَختَ مَنامٍ وهو حَقّاً مُكسّرٌ لِلعظامِ
أسدَلوا فَوقَهُ سِتارَ حَريرٍ زَاهِيَ اللّونِ، خَادعَاً لِلطّغامِ
نِصفُهُ نَاتِئٌ بِدُونِ انتظامٍ جامعٌ لِلوهادِ والآكامِ
ينتهِي سَفحُهُ بِوَادٍ عَميقٍ ضيقِ الصّدر ، خَافقٍ للنِيامِ
مَن ينَمْ فوقَ نَاتئٍ منهُ يحسبْ أنّهُ فوقَ نَاتئِاتِ السِّهامِ

أو يـنَمْ بَـينَ واطـئٍ منـهُ يحسـبْ قَالـبَ الضَّـغطِ وَسـطَ تَخـتَ المَنـامِ
قَـد دَعـاهُ الأنـامُ تَخـتَ مَنَـامٍ وهـوَ عنـدَ التَحقيـقِ تَخـتُ انتقـامِ
كـم أتَـوا نَحـوَهُ بِضَـيفٍ جَديـدٍ كبَـرِئٍ يسَـاقُ لِلإعـدَامِ
نَـامَ مِـن فَوقِـهِ فمَـا نَـامَ للصّـبحِ لفَـرطِ الأوجـاعِ وَالآلامِ
نَـامَ مِـن فَوقِـهِ صَـحيحاً فلَـم يمـ ـضِ قَليـلٌ حتّـى غـدا ذَا سِـقَامِ
ظَـلّ لِلصُـبحِ لَـم يـذُقْ طَعـمَ نَـومٍ ويـوَالى أنَّاتـهِ بانتظـامِ
بَـاتَ فـى تَختِـهِ يـئِنُّ ومنـهُ فَـرَّ قبـلَ انهـزَامِ جَـيشِ الظـلامِ
رَاحَ مِنـهُ يسـيرُ مُنحَنِـىَ الظهـ ـرِ وقَـد كـانَ مُسـتَقِيمَ القِـوَامِ
شَـخِرَ الضـيفُ حـينَ نَـامَ فلَـامَوهُ ومَـا كـانَ مُسـتَحَقَّ المَـلامِ
لَـم يكـن طَبعُـهُ الشّـخيرَ ولكـن عَصـرُوهُ فصَـاح مِـن الامِ
لَو وَضعتَ الأحجَارَ فى قالبِ الضّغطِ لَانَـت، وَإن تكـن مِـن رُخَـامِ
أنّـةُ التخـتِ مازَجَـت أنّـةَ الضّـيفِ فَـالفْنَ مُشـجى الأنغـامِ
ينـذِرُ التخـتُ ضَـيفَهُ بِـأنينٍ مَانحـاً نُصـحَهُ بِـدُونِ كـلامِ
وكـأنَّ الأنـينَ مِـن جَانـبِ التَخـتِ بُكـاءٌ عَلـى الضّـيوفِ الكـرامِ
أو كـأنَّ الأنـينَ منـهُ زَفيـرٌ أو شـكاوِى يبثهَـا للأنـامِ
قَـائِلاً: إنّنِـى عَليـلٌ فَهَـل أستطيعُ حَمـلاً لِهـذِهِ الأجسَـامِ؟

ويهاجم الصافى شعراء المراثى، أولئک الذين يتسابقون ويتهافتون ويغتنمونها فرصة لإبراز مواهبهم وشحذ قرائحهم كلّما مات عظيم – فيرثونه – كما يقول بشعر ميت! قد كان أولى منهم برثاء. (المصدر السابق: ۱۰۱)

مَـا مَـات ذُو شَـأنٍ بِنَـا إلا بَـدَت شُـعراءٌ قَـد جلـت عَـن الإحصَـاءِ
فَكـأنّهُم دِيـدَانُ جِسـمِ مَيـتٍ نُشِـرَت مِـن الأمـوَاتِ فـى الأحيـاءِ

يرثـــونَ مَيـــتَهُم بشِـــعرٍ ميـــتٍ قـــد كـــانَ أولـــى مِـــنهُم برِثَـــاءِ
لَو عَـادَ ذَاک المَيـتُ حَيـاً مَـاتَ مِـن شِـــعرٍ رَثَـــوهُ بـــهِ بـــدُونِ حَيَـــاءِ
لَـــو كـــانَ يعلَـــمُ أنّهُـــم يرثونَـــهُ مَـــا مَـــاتَ كـــيلا يبتلَـــى بُهُـــراءِ
يـــا مَـــوتُ رِفقَـــاً لاتُصِـــبْ ذا مُحتـــدٍ كـــيلا تَهـــيجَ عُفُونـــةَ الشّـــعراءِ!

وفى ديوانه "أشعة ملوّنة" يسخر من شخصٍ جاهلٍ يدّعى أستاذاً: (الصّافى النجفى، ديوان أشعة ملوّنة: ١٦)

وغَبِّـــــيٍ سَـــــميتُهُ أســـــتاذاً وهـــو فـــى جَهلِـــه مِـــن الأفـــذاذِ
قِيـلَ هَـل رُمْـتَ رَفعَـهُ قلـتُ كلّـا رُمـــتُ إســـقاط كَلمـــة الأســـتَاذِ

هذا ولم تسرّ الشّاعر بشرى معاش التقاعد فقال: (المصدر السابق: ٢٤)

قَـالوا جَرَى(التنسـيقُ) قُلـتُ إلـيكمُ عنّـــى فَلَـــيسَ يصـــيبُنِى برَشَـــاشِ
أنَـــا أحســـدُ (المُتقاعِـــدينَ) لَـــأنّنِى (مُتقاعـــدٌ) لَكـــن بـــدُون مَعـــاشِ

ونضحک مع الصّافى أيضاً حين يتحدّث عن ثوبه الجديد الذى ارتداه؛ ومن عـادة النّاس أن يزهوا بثيابهم الجديدة، ولكن الصّافى على العكس، يؤثر ثيابه القديمة، وحتّى البالية منها، وقد ذكرنا سابقاً أنّه لم يكن يهتم بمظهره، ويسخر من النّاس الذين يحتفون بمن يلبس الثياب الفاخرة بل إن الشّاعر يخجلـه الثـوب الجديـد: (الصـافى النجفـى، ١٩٤٦م: ٣٤)

لَبســتُ ثَوبَــاً جَديــداً فَاكتَسَــبتُ بــهِ شَـــأناً جَديـــداً وصَـــارَ الكـــلُّ يكرِمُنِـــى
تغيـــرَتْ نَظـــرَاتُ النّـــاسِ لِـــى ولَقَـــد كانَـــت تُريبُنِـــى نُفـــوراً حـــينَ تُبصِـــرُنِى
فَصَارَ يبسَـمُ لِـى مَـن كـانَ يعـبَسُ بِـى وَصَـــارَ للصّـــدر يـــدعونِى ويجلِسُـــنِى
كأنّمَـــا أنَـــا هَـــذَا اليـــوم غَيـــرِىَ فـــى أمسِـى ومَـا بُـدِّلَتْ رُوحِـى ولا بَـدَنِى
إن كـانَ حُسـنُ لِباسِـى قَـد دَعَـاهُ إلـى هَـذِى الحَفَـاوَةِ بِـى فِـى السِّـرِّ والعَلَـنِ

فليمضِ تَـوّاً إلـى سُـوق القُمـاشِ لِكـى يلقـــىَ لَـــهُ سَـــجدةَ العبّـــاد لِلـــوثنِ
ظَنَنـــتُ البسَـــتِى لِلبُلـــهِ خادعـــةً وَإذ بِهَــا خُــدِعَتْ حَتّــى ذَوى الفِطَــنِ
الكـــلُّ تَفتِنُـــهُ الألـــوانُ زَاهِيـــةً ولَـــيسَ بـــالجَوهرِ الغـــالى بِمُفتـــتَنِ
قَـد كنـتُ فـى رَائـقِ الألـوانِ أخـدَعُهُم لَـــولا حَيـــاءٌ عَـــن التَمويـــهِ يردَعُنِـــى
إن كـــانَ حُـــبّهُم لِلّـــونِ أضـــحَكَنِى فَـــإنَّ جَلبِـــىَ لَهُـــم بِـــاللّونِ يضـــحِكنِى
النَّـــاسُ يخجِلهُـــم بَـــالى ثِيـــابِهمُ فَكيـفَ بِـى وجَديـدُ الثـوبِ يخجِلُنِـى
جَديـدُ ثـوبى كـالإعلان يجلِـبُ لِـى أنظـــارَهُم فَيســـلِّيهم ويحزُنُنِـــى
لَو كنتُ فى الطّيرِ طَاووسَاً خَشيتُ إذن تَطلــعُ النَّــاسِ حَتّــى لَــم أدعْ وَكنِــى

ولكن لديه ما يبرّر حبّه للثياب البالية ويعتقد أنها ميزة له، تفرّق بينه وبين الجهال: (الصافى النجفى، ديوان اللفحات: ۱۸۰)

قَد حَجَّبت جَـوهَرِى العُلـوِى ألبِسَـتِى كالرَّمـلِ يحجُـبُ عَنّـا غَـالىَ الـذَّهبِ
فَصَـارَ يسـعّى إلـى لقيـاىَ، ذُو فِطَّـنٍ وصارَ يهـرُبُ مِـن مَـرآىَ كـلُّ غَبـى
فَرَّقْـتُ مَـا بَـينَ جُهّـال وأهـلِ حِجَـى كالعقلِ فَرّقَ بـينَ الصّـدقِ والكـذبِ

وكثيراً ما يسخر الشّاعر من فقره إذ يقول: (الصافى النجفى، ديوان أشعّة ملوّنة: ۱۹)

صَـــافَحَتنِى يـــدُ امـــرِئٍ فَرَآنِـــى سَـأخنَ الكـفِّ مِـن لظـى الوَسـوَاسِ
قَـــال هـــذِى حَـــرارَةُ الإيمـــانِ قلـــتُ لا بَـــل حـــرارَةُ الإفـــلاس!

وربّما نصحه أحدهم بأن يدّخر الفلس الأبيض ليوم أسود فأجاب الشّـاعر قـائلاً: (المصدرالسابق: ۱۸)

قَـــد قِيـــلَ وَفـــر إن تَكـــن حَازِمَـــاً مِـــن يومِـــک الأبـــيضِ للأســـوَدِ
فقُلـــتُ أيـــامِى ســـودُ فهَـــل أكنـــزُ مِـــن يـــومِى شَـــقّاً لِلغَـــدِ؟!

ويسخر من الطبيب الذى أراد أن يداويه: (المصدرالسابق:۶۰)

جَسَّ الطّبيبُ يدِي فَارتَاعَ مِن مَرضِي وقَال دَاؤُک يعيى طبّ إبليسِ
لَكنّنِي سَأدَاوِي اليومَ جِسمَک مِن أسقَامِهِ، قلتُ: قَبلاً دَاوِلِي كيسِي

ويلاحق الشّحاذون الصافي، ظنّا منهم أنّه أمير غني، ويشكون له كثرة النسل والأولاد فيقول: (المصدرالسابق: ٦١)

دَعَانِي بِالأمِيرِ وكنتُ أولَى بِأن أدعَى أميرَ المُفلِسِينَا
عَجِيبٌ أنّهُم يأتونَ تَوّاً إلىّ ويتركونَ المُوسِرِينَا
فَهَل مِن جنسِهِم أن قَد رَأونِي فَجَاؤونِي مَعاً مُستَعطِفِينَا؟

ولكن لنستمع إلى جوابه اللاذع حين يشكون كثرة النسل والأولاد، يقول: (الصافى النجفى، ديوان التيار: ١١٣-١١٥)

لک اللذاتُ فِي إيجادِ نَسلٍ ونحن بحفظ نسلک ملزمونا
فَهَل مِن جِنسهِم أن قَد رَأونِي فَجَاؤُونِي مَعاً مُستَعطِفِينَا؟

ومن موضوعاته الشعرية الشبه ساخرة أنّه يشيد باليأس ويطريه ويعجب بمحاسنه حيث يقول: (الصافى النجفى، التيار: ٣٤)

مَا أجَملَ اليأسَ يعطِي لِنَفسِي استِقلالا
إذ لَيسَ يبقِي لِنَفسِي بالكائنَاتِ اتصَالا

وله طريقة فورية فى القضاء على الفقر مغايرة لما جاء فى أشعار الزهاوى والرصافى والشعراء الإصلاحيين كافة قديماً وحديثاً: (الخياط، ١٩٨٧م: ١٠٩-١١٠ نقلا عن أشعة ملونة: ٥٣)

كم غَنِىّ لَم يعطِهِ اللهُ نَسلاً وفَقِيرٍ يبلِى بِنَسلٍ كثيرِ
فَلَو أنَّ الأمُورَ كانَت بِكفِىّ كنتُ أخصِى فى الكونِ كلَّ فَقيرٍ

ويدعو الله أن يشوه وجوه النساء الجميلات الفاتنات لئلا يقع فى غرامهن والاكتواء بجفائهنّ: (الصافى النجفى،ديوان التيار: ٦٦)

يـــارَبِّ شَـــوِّهِ لِـــى وُجـــوهَ الغِيـــدِ كـــيلا أُعـــذَّبَ مِـــنهمُ بِصـــدُودِ

ويكره أجهزة المذياع كرهاً شديداً: (الخياط، ١٩٨٧م: ١١٠ نقلا عن المجموعة الكاملة لأشعار أحمدالصافى غير المنشورة، ١٩٧٧م: ١٣)

(الراديـــاتُ) مُصـــيبةٌ بِضَـــجِيجِهَا إن أمسَـــكتهَا كـــفٌّ جِلـــفٍ ضَـــارِ

لَـيسَ الحِمَـارُ بِمُـزعِجٍ فِـى صَـوتِهِ أبَـــداً كمِـــذياعٍ بِبَيـــتِ حِمـــارِ

إنّ الصافى يفضّل صوت الحمار على صوت المذياع ويشبه مالك المذياع بالحمار.

والصافى ينتقد الصحف ويتهجّم عليها ويسخر منها ويقول ليس للصحف مهمة خاصة ولا علاقة لها بالنشر والإعلام: (المصدرالسابق: ١١٠)

جَعَلتُ علَى الصُّحفِ اتكـائِى لِرَاحَتِـى فَلَـيسَ سِـوى جِلـدٍ وَعَظـمٍ مجالـدِ

خَـلا العَظـمُ مِـن لَحـمٍ يقيـهُ صَـلابةً فَعَوَّضَـــهُ عنـــهُ بِلَحـــمِ الجَرائِـــدِ

والصافى عدو لدود للزواج ولا سيما إذا كان المرشح له شاعراً: (المصدرالسابق: ١١٠)

إذا شَـــاعِرٌ رَامَ اقتِرَانـــاً بِزوجَـــةٍ فَفِـى البيـتِ مَجنُونَـانِ يصـطَرِعَانِ

كفَـانِى جُنـونُ العَبقَريـةِ شَـاغِلاً أ أُضـفِى عَليـهِ مَـن جُنُـونِ غَـوَانِى

فَكيـــفَ إذا زُوِّجـــتُ شَـــاعِرةً إذن أعـــيشُ وَمَجنـــونين يصـــطَدِمَانِ

فَلِلمَـــرأةِ الحَســـنَاءِ تَـــأثيرُ خَمـــرةٍ فَمَـا اجتَمَعـتُ وَالعقـلَ ضِـمنَ مَكـانِ

وتنتهب المرأة نصف عقل الرجل ويجهز الأولاد على النصف الثانى منه: (المصدرالسابق: ١١١)

مَـن رَامَ حِفظَـاً لِعقـلٍ عَـاشَ مُبتَعِـداً عن ثرثرات النسـا أو صَـخبِ وُلـدانِ

فَالزَوجُ تأخـذُ نِصـفَ العَقـلِ زَوجتـهُ ويأخـذُ الوُلـدُ مِنـهُ نِصـفَهُ الثـانِى

وحين يريد الأدباء أن يقيموا احتفالاً له يرفض ذلک ويرى أن مهرجانه الحقيقى بين الناس فى الشارع ومع الزحام: (المصدرالسابق: ١١١)

كنـتُ فـوقَ الرّصِـيفِ أجلِـسُ يومَـاً وَعَلَيـــــهِ لِلعَـــــابِرينَ زِحـــــامُ

جَاءَ مَن لَم أعرِفهُ، قَال لِی: سَلامُ ... قُلت مُن؟ قَال مَن بِشِعرِک هَامُوا
أنتَ ذَاک (المَحکیُّ بَینَ طُیور) ... وسِوَاک الأصدَاءُ وَالنُّظَامُ
کانَ ذَاک السَّلامُ لِی مَهرَجَاناً ... مَهرجَانِی علَی الرّصِیفِ یقَامُ

ویهزأ بمن یفضی إلیه أن بیته سیکون متحفاً بعد موته، فمن کان عمره طوافاً وتشرّداً لا یمکن أن یقرّ فی بیت فیقول فی ذلک: (المصدرالسابق: ۱۱۱)

یقولُونَ بَیتِی سَوفَ یغدُو مَحجةً ... إذا مَا طَوَی شَخصِی القَضَاءُ المُحتَمُ
یحِجّ لَهُ عُشَاقُ شِعرِی مواکبَاً ... یقبِّلُهُ هذَا وَذاک یسَلِّمُ
فقلتُ وَهَل لِی أیُ بَیتٍ یضُمُّنِی ... وَعُمرِی طَوافٌ مُزمِنٌ وَتبرمُ
فَبَیتِی مقَاهٍ جَمَةٌ وَفَنَادِقٌ ... أُقیمُ بِهَا حِینَاً فأشقَی وأُهزمُ
وَبَیتِی زَوایا لا تُعدّ سَکَنتَهَا ... ورَوضٌ وَصَحراءٌ بِهَا کنتُ أنعَمُ
وَکرسِیُ مَقهَی کنتُ أجلِسُ فَوقهُ ... وَشَاطِئُ بَحرٍ أهنأُ فِیهِ وَأحلُمُ
وَبَیتِی خَرابَاتٌ بِشِعرِی عَمرتهَا ... أجِیءُ لَهَا أبغِی الهُدُوءَ وَأنظمُ

النتیجة

لقد رأینا شاعرنا الصافی ونبرته الساخرة إلی کثیرٍ من المواقف والأمور التی وقعت من حوله، وکان مشرّداً بین الدّول لایمتلک لنفسه لاسکناً ولا داراً، ولا مقرّاً ولا استقراراً، لقد کان مطارداً من قبل السّلطات العراقیة وکان مطارداً من قِبل الحکومات الأجنبیة، ولکن إرادته کانت أقوی من أسلحة تلک الحکومات، نعم یعدّ شاعرنا المُترجَم له من الوطنین الدرجة الأولی الذی جعل من شعره السّاخر سلاحاً یهاجم به المحتلین والمعتدین علی بلاده، وکذلک هاجم بشعره المتهکم الساخر الحکّام المحلّیین الذین کانوا یقسون علی شعبهم ویظلمونه أشدّ ظلم. إنّ ما ذکرنا ما أتینا به حول سخریة الشاعر ما هو إلا القلیل وعلی من یرغب فی التعرف علی أشعار الشاعر مراجعة دواوینه المذکورة أعلاه، فإنّها ستَفی بالغرض لوجود العدید من الشعر الفکاهی

الساخر والهادف بنفس الحال.

المصادر والمراجع

۱) ابن منظور، جمال الدين. ۱۹۹۸م. لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربی.
۲) الأصفهانی، أبوالفرج. ۱۹۹۲م. الأغانی. شرح أ/عيد علی مهنا. بيروت: دارالكتب العلمية.
۳) أنوشة، حسن. ۱۴۱۲ق. فرهنگنامه أدبی فارسی. تهران: دفتر نشر فرهنگ اسلامی.
۴) برهومی، خليل. ۱۹۹۳م. أحمد الصافی النجفی شاعر الغربة والألم. بيروت: دار الكتب العلمية.
۵) بصری، مير. ۱۹۹۴م. أعلام الأدب العربی فی العراق الحديث. لندن: دار الحكمة.
۶) بطی، رفائيل. ۱۹۲۳م. الأدب العصری فی العراق العربی (قسم المنظوم). مصر: المطبعة السلفية.
۷) الجوهری، إسماعيل بن حماد. ۱۹۹۰م. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. بيروت: دار العلم للملايين.
۸) الجيوسی، سلمی الخضراء. ۲۰۰۱م. الاتجاهات والحركات فی الشعر العربی الحديث. ترجمة: د.عبدالواحد لؤؤة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
۹) الخياط، جلال. ۱۹۸۷م. الشعرالعراقی الحديث. بيروت: دار الرائد العربی.
۱۰) الزبيدی. لاتا. تاج العروس. بيروت: دار إحياء التراث العربی.
۱۱) شرارة، عبداللطيف. لاتا. الصافی. بيروت: دار صادر.
۱۲) الشّعار، فوّاز. ۱۹۹۹م. الموسوعةالثقافيةالعامة(الشعراءالعرب). بيروت: دار الجيل.
۱۳) شمس آبادی، حسين واصغر مولوی نافچی وغلامرضا گلچين راد. ۱۳۹۰ش. «القضايا الاجتماعية فی مرآة شعر الرصافی». فصلية دراسات الأدب المعاصر. السنة الرابعة. العدد ۱۳. صص ۳۰-۹.
۱۴) الصّافی النجفی، أحمد. لاتا. ديوان أشعة ملوّنه. ط۲. بيروت: منشورات العصريه للطّباعة.
۱۵) ـــــــــــــ ۱۹۶۱م. ديوان الأغوار. بيروت: دار العلم للملايين.
۱۶) ـــــــــــــ ۱۹۴۶م. ديوان التّيار. دمشق: لجنّة الترجمة والتأليف والنشر العراقية.
۱۷) ـــــــــــــ لاتا. ديوان اللّفحات. بيروت: دار الريحانی للطباعة والنشر.
۱۸) ـــــــــــــ ۱۹۸۳م. حصاد السجن. بيروت: مكتبة المعارف.
۱۹) العطری، عبدالغنی. ۱۹۷۰م. أدبنا الضاحک. بيروت: دار النهار.